الفصل الرابع

الجهاد فى الإسلام على يد رسول الله ﷺ والسلف الصالح من بعده

[إن رسول الله ﷺ له من الصفات الأساسية للرسل كمالها وتمامها، وإن ذلك دليل على أنه رسول الله حقا، خلقه الله على، أكمل الأحوال، وأرفع المقامات، ووفقه لأعظم الأعمال مما ينوء بحمله الرجال مجتمعين يسار فى طريق لم تضطرب بدايته فيه ولم تتحول مسيرته عنه][1].

ولم يلجأ فى حياته قط إلى العنف فى تعاملاته، فاستحق أن يلقب (بنبى الرحمة).

وكان الرسل الذين تتابعت رسالتهم إلى البشرية: [يمثلون ذروة الكمال البشرية، لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله، ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود، وهى مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح إلى الكمال، بتخليصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيوانى أو مادى أو غريب عن فطرتها، حتى تصبح ربّانية][2].

حتى ختمت رسالة محمد ﷺ الرسالات السابقة عليه، قال تعالى:

---

(١)سعيد حوى- الرسول ﷺ - مكتبة وهبة ص١١٥.

(٢)سعيد حوى الرسول ﷺ مكتبة وهبة ص٨.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

لقد أكمل الله به الدين، وأتم على خلقه النعمة وأخرج برسالته الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه الذكر، وتكفل بحفظه ليُحقَّ به الحق، ويبطل به الباطلَ، وليبقى عبر الزمان والمكان أملَ الباحثين عن العدل وعن الخير، وعن كرامة الإنسان[1].

لقد اختار الخالقُ سبحانه الرسولَ ﷺ ليعلِّم البشرَ الدستور الذى يُصلح حياتهم ويضمن لهم الحياة الطيبة إذا ما اتبعوه وهو [القرآن الكريم].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وحمل لنا القرآن الكريم النورَ والهداية، وما علينا إلا الاهتداء بهديه.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

بعث اللهُ النبيّ الكريم للبشرية، شاهدًا ومبشرًا ومذيرًا، فبلَّغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانة، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد اصطفى الله من البشر من كانوا رسلا.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾

---

(١) د. عبد الصبور مرزوق- معجم الأعلام والموضوعات فى القرآن الكريم جـ١. الهيئة المصرية العامة للكتاب ص١٠٤.

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

جاء محمد عليه السلام بدين الإسلام الذى جعل للبشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم من القيم والتشريعات ما يضمن سعادتهم والرحمة بهم.

وكان عليه السلام رحيمًا بالجميع، مسلمين وغير مسلمين، كبارًا وصغارًا، أحرارًا، وأرقاء، أصدقاء وأعداء. حتى حين قيل له أن يدعو على المشركين قال: [إنى لم أبعث لعَّانًا وإنما بعثت رحمةً].

ووصفه القرآن الكريم بالرحمة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إن رسولنا ﷺ نبى الرحمة فى الكثير من آيات القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

إن لنا فى الرسول الكريم المثال والقدوة، وقد خاطب الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن الأمثلة عن سلوك الرحمة، لديه عليه السلام ما روته السيدة عائشة رضا الله عنها: أنه قَدِمَ ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ قال: نعم، قالوا: ما نقبِّل أبناءنا. فقال ﷺ: أوَ أمْلِكُ إن كان الله نزعَ من قلوبكم الرحمة. متفق عليه. رواه البخارى ص١٢٢. قال تعالى:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وجـزاء الرحمة عظيم، يشـعر به الناس فى حياتهم سـعادةً ورضًى فـى نفوسـهم، وفى الآخرة رضًـا ومثوبةً من ربهم. قـال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: ١٧ – ١٨].

وقد سمى الخالق سـبحانه محمـدًا ﷺ (رحمةً)، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، وسمـاه ﴿ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾، ومن الأسماء التى سمَّى بها الرسول نفسه (نبى الرحمة).

وقال ﷺ: [إنما أنا رحمةٌ مهداةٌ].

وكان النبى ﷺ [نبى الرحمة] قدوة للبشر:

عن عائشـة رضا الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول فى بيتى هذا: [اللهم من وَلِىَ من أمر أمتى شـيئا فشـقَّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومَن وَلِيَ من أمر أمتى شيئا فرفقَ بهم فارفق به]. رواه مسلم

لقد جعل الخالق سـبحانه الرسول–محمد– ﷺ– [خاتمُ النبين] مما يؤكد أن رسالته البشرية جاءت كاملة شاملة كافلة لجميع مصالح البشر وسعادتهم.

* قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب: ٧١].

* وقال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

جـاء النبى محمد ﷺ نورًا وهدًى للدنيا، أهدى الله سـبحانه معه

للبشـرية كتابه العظيم، القرآن الكريم، أعظم وأكمل الكتب السماوية، وآخر الرسـالات الربانية، وحـوى القرآن الكريم الدسـتور الأخلاقى الكامل الذى يتميز بالرحمة التى أكدها الرسـول الكريم فى كلِّ أعماله وأقواله.

فهو نبى [الرحمة] فى أوقات [السِّلْم]، وفى أوقات [الحرب]...

حثَّ ﷺ على (الرحمة) والتسامح والرفق فى المعاملات: قال ﷺ:

[تلقت الملائكة روح رجل ممن كانوا قبلكم. قالوا: أعملتَ من الخير شـيئًا؟ قال: كنت آمر فتيانى أن يُنظِرُوا المعسِـرَ ويتجاوزوا عن الموسر، فيجاوز الله عنه] رواه البخارى.

ولم تكن صفة الرحمة واضحة فى علاقة النبى محمد ﷺ بالمسـلمين فحسب، وإنما شمل بها المسلمين وغير المسلمين، كما لم تشمل الرحمة أصدقاءه فقـط ولكنها شملت الأعداء والكبار والصغـار والأحرار والكبار والصغار. ولم تكن رحمته مع الإنسان فحسب وإنما امتدت إلى (الحيوان والطير) وكل الكائنات.

قـال ﷺ: [عُذِّبت امرأة فى هِرَّةٍ، سـجنتها حتى ماتت جوعًا، قد دخلـت فيها النار، لاهى أطعمتها ولاسـقتها، ولاهى تركتها تأكل من حشاش الأرض] عن أسماء بنت أبى بكر.

ومـن رحمته بالحيوان والطير. عن أنس رضا الله عنه قال: [ما من مسـلم يغرس غرسا أو يزرع، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه] رواه مسلم.

وكان الرسول ﷺ، يوصى الناس قائلا:

[إذا أحب أحدكم أخاه، فليخبره أنه يحبه. وإذا آخى الرجلُ الرجلَ، فيسأله عن اسمه واسم أبيه، وممن هو- فإنه أوصَلُ للمودة].

ويقول: [يقول الله عز وجل: المتحابون لجلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء. إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى. قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أقوالٍ يتعاطونها... فواللهِ إنّ وجوهم لنور وإنهم لعلى نور، لاَ يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس. وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس٦٢) نادى النبى محمد ﷺ بالكرامة الإنسانية، تأكيدا لما جاء فى قوله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء٧٠) فالكرامة حقٌّ لكل إنسان مهمَا كان دينُه أو جنسه.

كما أوصى الإسلام بأهل (الذِّمَّة)، وجعل لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين من حقوق وواجبات.

وصدر فى سلوكياته ومعاملاته عن إيمان بالدستور القرآنى، وما أكده من حسن معاملة أصحاب الديانات المختلفة.

ذلك أن الحقيقة العظيمة التى يقوم عليها الإسلام هى أن تعاليمه ومناهجه صالحة لكل زمان ومكان، فهو الدين الذى يعترف بسائر الأديان السماوية وكرَّم جميع الأنبياء، وألزم الناس بالإيمان بهم.

* قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٥].

وعلى شريعة الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ إمام الأنبياء، وخاتمهم، أسَّس الدولة التى أشادت بها كل الديانات السماوية التى جاء بها الرسل الكرام من الخالق جل وعلا.

وكان قوام هذه الدولة (حسن الخلق) العلم العدل الأمانة الصدق المحبة الأخوة، محمد هذا الرسول العظيم، الذى جعله الله سبحانه خاتم النبيين وسيد ولد آدم، ومنحه (جوامع الكلم)، وجعل الأرض مسجدا وطهورا له، وأرسله للناس كافة (هاديًا)، ومبشرًا و(نذيرًا).

إن رسالة [محمد] ﷺ ليست للمسلمين فقط، إنما هى رسالة للإنسانية.

إنه [محمد] ﷺ الرسول الذى غيَّر وجهَ الدنيا، وجدير بنا اتباع سنته.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وستظل السنة النبوية المطهرة واحة للنفوس، ومصدر الاقتداء بخلق الرسول ﷺ، يستمد منه البشر قوة الدنيا، والجنة فى الآخرة، لأنه استمدها من شريعة الله الغراء، وكتابه العظيم، القرآن الكريم، وهو سبحانه كما قال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وحين أكمل الله بالرسول محمد ﷺ(الدين)، وأتم به النعمة على المؤمنين، اختاره الله لجواره، واللحاق بالرفيق الأعلى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فابتدأ به المرض فى آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، فخرج إلى الناس عاصبا رأسه، فصعد المنبر فتشهَّد، وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قُتلوا فى (أحد) ثم قال: [إن عبدا من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله. ففهمها [أبو بكر] رضا الله عنه فبكى، وقال: بأبى وأمى نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا، وأنفسنا، وأموالنا].

إنه النبى [محمد] ﷺ الذى ترك للبشرية كنوزا من الوصايا تصلح أحوالهم فى كل زمان ومكان، وكررها على امتداد دعوته العظيمة، ولخصها فى [خطبة الوداع].

وكان نهجه فى [الجهاد] من أجل نشر الدعوة نهجا رائعا صالحا لكل زمان ومكان، حتى يتعايش البشر جميعا فى سلام ومحبة وأمان.

وكان أول جهاد فى الإسلام قام به النبى ﷺ [الهجرة] من مكة إلى المدينة، ثم كانت الغزوات.

موقف النبى ﷺ من الجهاد

من المهم أن نتعرف على موقف النبى ﷺ من الجهاد، فهو للبشرية القدوة والمثل الأعلى.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

لقد انبثقت رؤية النبى ﷺ، وتعاملاته فى الجهاد أو الحروب، من

خلال أخلاقياته العامة إلى امتداد حياته، فى معاملاته وسلوكياته فى السلم، أو فى الحرب، والتى اتبعت منهجا أخلاقيا واحدا، يعتمد على قيم نبيلة تتسم بالعدل والإحسان والرحمة والسماحة وعدم العدوان..

وقد مكنته هذه الأخلاقيات من تحقيق الانتصارات فى حياته وأيضا فى [جهاده].

تعرّض الرسول ﷺ للأذى والإساءات ممن لم يدخلوا فى الإسلام.

فى الطائف: أساء إليه بعض السفهاء فكانت كلمته الشهيرة ردًّا عليهم، [عسى أن يخلف الله من بين أصلابهم مَن يعبده]، وهذا مما يؤكد سماحته، ورحمته، وترفعه عن الإساءة إلى المسيئين.

وفى آيات القرآن الكريم الكثير مما يؤكد رؤية الإسلام فى التعامل مع من يخالفون تعاليمه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وظلت آيات القرآن الكريم توضح للنبى مسلكه مع أعداء الإسلام وتهديه فى كل مرحلة من مراحل جهاده فى سبيل الدعوة.

حين اجتمع عليه المخالفون بالشر والعداء ونزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٨، ٣٠] [أمر

الله رسوله ﷺ أن يبلغ رسالته إلى أمته فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقام رسول الله ﷺ بتبليغ هذه الرسالة العظيمة الصالحة لكل زمان ومكان..

وسلك سبلًا كثيرة لتبليغها، تارةً بالكلمة، والنصيحة، والموعظة، وأخرى بالرسائل وغيرها، وكان لا بد من مواجهة ومقاومة لمن بدءوا العدوان بالدفاع أحيانا عن الدين والأرض والعرض وفى وقت تلقيه ﷺ الإذن بالقتال، لنشر الدعوة، أو الدفاع عنها كانت (الحروب) التى تركت عبر التاريخ دروسا تتلقاها البشرية، وما زالت سماتها المميزة تحظى بالإعجاب من المفكرين وكبار الكُتّاب، والسياسة الذين يكتبون عنها ويُعلون من قدرها بحيث يعترفون أنه مع التطور العلمى والتكنولوجى المعاصر، فقد سبق الرسول ﷺ فى تنظيم الحروب وفى الأخلاقيات التى ألزم بها المحاربين المسلمين معه ومن الأباطيل والافتراءات التى قيلت تلك التى أرجعت انتشار الإسلام فى صدر الدعوة المحمدية إلى قوة السيف.

ودحض هذا الافتراء الأستاذ [عباس العقاد] رحمه الله بقوله: [ما كان للإسلام يومئذ من سيفٍ يصول به على أعدائه الأقوياء، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف، وطرائد الغشم والجبروت. وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونسيا والقارة الإفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين من العالم أجمع، وما روى التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فضلا

عـن مئات الملايين – من دين إلى دين. وكان شمول العقيدة الإسـلامية النفوس، هو العامل القوى الذى يجمع إلى الإسلام النفوس، ويحفظ لها قوة الإيمان ويسـتغنى عن (السيف) وعن (المال) فى بث الدعوة[1]. ومن تعاملات الرسـول ﷺ تتأكد قيمة احترام الأديان وتقديسها دون تمييز، أو إكراه، واهتمامه بحرية التعبير عن الرأى والاعتقاد، وعدم التمييز بين الناس على أساس من جنسٍ أو عرفٍ أو دين.

واحـترام حريات الناس وعقائدهم وطرق تعبيرهم عنها. ما داموا فى ظل المواثيق التى ارتضتها الإنسانية سبيلا إلى السلام والتقدم.

أكد الرسـول ﷺ قيمة (الأخوة) الإنسانية، التى ينبسط رداؤها على جميع الأجناس والأقوام، كما ينبسـط على جميع الملل والديانات، [فلا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشـى على حبشى إلا بالتقوى] كما جاء فى حديثه ﷺ، وكما جاء فى القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجـرات: ١٣، ١٤]، إن الله سبحانه أوجد الشعوبَ والقبائل لتتعارفَ، وتصطلحَ على العرف الحسـن والمعرفة الرشـيدة، لتجمعها أسـرة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالتقـوى، وهـو فى جهـاده. لم يقصد إلا الدعوة إلى تعلـم هذا الدين،

(١)عباس محمود العقاد- حقائق الإسـلام وأباطيـل خصومه- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ ص١٩.

والعمل بأوامر كتابه العظيم، والانتهاء عن نواهيه ولم يحارب لفرض هذا، وإنما حارب دفاعا ومقاومة لمن يريدون إيذاءه هو ومن آمن معه.

مع من ترك حرية الاعتقاد للجميع عملا بقوله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤، ٢٣].

وقد عاش النبى ﷺ بين كفار مكة ثلاثة عشر عاما، لم يؤذ أحدا منهم، فقد قامت دعوته على الإخاء والتسامح والإخلاص والتواضع، والصدق والمحبة، وكل القيم النبيلة التى تسعد البشرية فى حياتهم، وضمن لهم الجنة فى آخرتهم، إن الإسلام لم يأت بنظرية من اختراع بشر لكنه رسالة بعثها الخالق سبحانه إلى البشرية كلها تأخذ بيدها من الظلمات إلى النور، على يد محمد ﷺ، ولا بد من التمسك بهذه الرسالة الحضارية الإنسانية لتصد الدعاة للحروب فى الغرب أو الشرق، لأن رسالة محمد ﷺ تدعو إلى تعمير الأرض.

وقد ظلَّ الرسول ﷺ يدعو كما تعلَّم من (القرآن الكريم) إلى القيم الرائعة والسلوكيات النافعة التى تضمن تعمير الأرض، وسعادة البشر فى كل مكان، من أخوة ومحبة بين البشر إلى حسن الجوار، والسماحة، والعدل، والصدق، والأمانة، وغيرها من القيم الإنسانية النبيلة.

وقد أعطى الرسول ﷺ نموذجا للقدوة الحسنة، ومثالا رفيع المستوى للقائد العظيم.

وقـدوة للعفو عند المقدرة، والصفح عند التمكن من أهل الإسـاءة حين جـاء فاتحًا مكة كان بمقدوره أن ينتقم ممن أذاقوه وأصحابه صنوف القهر على مدى ثلاثة عشـر عاما. لكنه عمل بقول الخالق سـبحانه وتعالى فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ . وقدَّم أمثله سامية من الاعتدال وضبط النفس، واجتناب الكبائر، والأساليب الوحشية، التى كانت تسوِّد صحف الحرب فى تلك العصور[1].

ودخـل مكة منتصرا فى العـام الثامن للهجرة، ودخـل أهل مكة فى الإسلام... وكان منهم من دخل عن إيمان حقيقى، وعقيدة سليمة، ومنهم المنافقون، لكنه أعلن قراره الإنسانى للجميع [اذهبوا فأنتم الطلقاء]. وكانت حـروبٌ، حروب دفـاع عملا بقوله تعـالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠)

كان الإسـلام فى بداية عهده هو المعتدَى عليه، وظل كذلك حتى بعد اجتمـاع الناس حول النبـى ﷺ، وكانوا جميعا يقاتلـون مَن قاتلهم، ولا يزيدون على ذلك.

وكانـت حروب النبى ﷺ حروب (دفـاع) ولم تكن منها حرب هجوم إلا علـى سـبيل المبادرة بالدفـاع بعد الإيقان من نكـث العهد، والإصرار على القتال، وتسـتوى فى ذلك حروبه مع قريـش وحروبه مع اليهود أو مع الروم[2]، وكان الجهاد فى عصر الرسـول ﷺ نموذجا رائعا تظلله روح

(١)محمـد عبد الله عنان ـ مواقف حاكمة فى تاريخ الإسـلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ ص٢١.

(٢)عباس محمود العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر ١٩٧٧ ص٣٤،٣٥.

المحبة والرحمة.

وكان يقول إذا بعث جيشه للقتال: [اخرجوا باسم الله، لا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع].

وعن أنس رضا الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة) تلك هى القوة العسكرية التى بناها الرسول وحققت أعظم انتصار فى مكة والمدينة وخيبر وحنين والطائف، وقدر لها بعد وفاته أن تنتصر على جيوش الأكاسرة والقياصرة [1].

وفى كتاب للدكتور أحمد شلبي[2]، [من السيرة المطهرة] يتساءل: هل انتشر الإسلام بالقوة أم بالدعوة..؟ فيقول:

سلك الإسلام طريقه بالدعوة متبعا [القرآن الكريم] فى آياته الكثيرة التى نادت بعدم الإكراه، وطلبت من الرسول ﷺ أن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة[3].

فخاطب القرآن الكريم الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وغيرها من الآيات القرآنية، التى تؤكد ضرورة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبين النبى ﷺ أهمية الجهاد فى

---

(١)د. أحمد شلبي- من السنة النبوية المعطرة جـ٩- الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٩.

(٢)د. أحمد شلبي- الجزء الثالث عشر منه.

(٣)الإسلام والقتال مكتبة الأسرة- الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠م ص٨.

قولـه: [لَـوددتُ أنى أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل][1]. وقد قصد الرسـول ﷺ التكرارَ ليؤكد رغبته فى الاستشهاد فى سبيل الله بغير حصر.

وقال أيضا: [رباطُ يوم فى سـبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سقوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها والروحة فى سبيل الله يروحها العبد، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها][2].

الهجـرة: كانت الهجرة هى أول جهـاد للصحابة الكرام، حين نفدت طاقتهم، فأُمروا بها، وكانت الظروف المحيطة بالمسـلمين فى مكة المكرمة قد بلغت حدًّا خطيرا فهاجر المسلمون جميعهم إلى المدينة بعد هجرتى الحبشة، وقبل الإذن بالجهاد لم يحرِّك المسلمون ساكنا ولم يـردوا بالمثل قـط على الاعتداءات والتجـاوزات على حقوقهم، واسـتمرَّ الوضع على هـذا المنوال مدةً بعد الهجـرة وأخيرًا أذن لهم بالجهاد.

ونزلت الآية الكريمة:

* ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج ٤٠،٣٩].

---

(١) البخارى: الإيمان ٢٦، مسلم: الإمارة ١٠٣، النسائى: الجهاد ٣٠.

(٢) البخارى: الجهاد ٧٣.

حين اشتدت عداوة المشركين للنبى ﷺ، نزل له الأمر الإلهى بالهجرة.

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠].

وكان الجهاد أمرا إلهيا خوطب به الصحابة حين أُمروا بالهجرة، وكان جهادهم فى ذلك الوقت متمثلا فى (الهجرة)، كما أُمر كل من أراد البيعةَ بالهجرة كشرط أساسى.

إن الأحداث فى هجرة الحبشة اختلفت عن الهجرة إلى المدينة، حيث أخذ الجهاد نمطًا آخر فى عهد المدينة، إذ أرسيت أسس الدولة الإسلامية.

فالذين مُنعوا من استعمال السيف أُذن لهم بالتسلح، وبعد مدة أصبح الجهاد ليس إذنًا فحسب، بل أمرًا إلهيًا.

* إن المؤمن المجاهد بشرٌ يكره الموت كما تقول الآية الكريمة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.البقرة (٢١٦)

لكن الله تعالى أذن لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال، قتال الذين أخرجوهم من ديارهم، وقاتلوهم، وفتنوهم فى الدين، ولكن بعد الهجرة أصبح الجهاد ليس إذنًا فحسب بل أمرًا إلهيًا. وأصبح المسلمون بعد ذلك، مضطرين إلى (الجهاد) بسيوفهم.

ولقد أسس النبى ﷺ القوة العسكرية التى انتصرت بعد وفاته، على أيدى سلفه الصالح رضا الله عنهم. وهزمت جيوش الأكاسرة، والقياصرة، ورفعت علم التوحيد فى أعظم إمبراطوريتين حينذاك.

وكان النبـى ﷺ، نموذجًا فريدًا للأخلاق المثالية فى (الجهاد) يجدر بالأمة، الاقتداء به فقد أعطى أمثلة عظيمة تعلم البشر أعظم القيم.

إن العـرب بعد اتحادهم تحت راية الإسـلام، وتوحدهم فى الإيمان بإلـه واحد، مع النبى (محمـد) ﷺ، أثاروا الدهشـة بانتصاراتهم فى غزواتهـم ومواجهتهم للامبراطوريتـين (البيزنطية) و(الرومانية)، تحت زعامة صحابة (محمد) ﷺ الذين تأسَّوا به، وساروا على دربه.

وقد اعتاد الكثيرون من مؤرخى السـيرة على الحديث عما يسـمونه (غزوات الرسـول): مما دعى بعض المستشـرقين المغرضين إلى الحديث عنهـا كحـروب عدوانية، لكنها فـى الحقيقة كانت تهـدف إلى عقد معاهدات سلمية، لم يبدأ الرسول ﷺ فيها حربًا، ولا صراعًا. وإنما كان [إذا عَلِـمَ بعـزم الأعداء على قتاله لم يمهلـم، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث فى (غزوة تبوك) فلا يكف عن التأهب السـريع، وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها وفى غزواته لم يحاصر محلة إلا تجنبا للغدر والوقيعة][1].

أما السـلف الصالح فقد كان فى مقدمتهـم [إرث القيادة الذى خلفه (أبو بكر الصديق)، يبدو فى خَلقِ نموذج من التواضع والتسوية والأمانة والإهتمام بعمل الخير ورفاهية العامة].

سوف توفّر هذه القيم نموذجًا صامدًا للقيادة فى العالم الإسلامى، وما وراءه. ورابـع خليفـة وهو على بن أبـى طالب، هو أحد القادة المسـلمين

(١) عباس العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر ١٩٧٧- ص٤٢، ٤٠.

الأوائل ممن وضعوا فى نص مكتوب شكلا تفصيليًا للقيادة المستنيرة.

والتى ستظهر عناصرها فيما بعد فى الخلافة النبوية والعباسية وغيرها...

وينجلى ذلك فى خطاب حول (القيادة) أرسله الخليفة (على بن أبى طالب) إلى تابعه الأمين (مالك الأشتر) عند تعيينه الحاكم المسلم الجديد على مصر.

جهاد الصحابة

سار الصحابة على نهج النبى الكريم فى الدعوة إلى الرحمة والبعد عن العنف، وعدم البدء بالقتال فهذه وصية (أبى بكر رضا الله عنه) وتتضمن وصايا عشرا، فقد روى (الإمام أحمد فى مسنده) عن (يحيى ابن سعيد): أن أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام، وبعث (زيد بن أبى سفيان) أميرًا فقال وهو يمشى وزيد راكب، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال أبو بكر، وما أنا براكب وما أنت بنازل، إنى أحتسب خطايى هذه فى سبيل الله، إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع، فدعهم وما زعموا [لا تقتلن امرأة، ولا صبيًا، ولا كبيرًا هرمًا، ولا تقطعن شجرًا مثمرًا، ولا نخلًا ولا تحرقها، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تجبن][1].

إن العرب قدَّموا فى فتوحهم الأولى أمثلة سامية من الاعتدال وضبط النفس، واجتناب الكبائر، والأساليب الوحشية التى كانت تسود صحف الحرب فى تلك العصور فقارن مثلا وصية (أبى بكر) إلى الذاهب

(١) مسند بن حنبل.

إلى الحبشة لقتال المرتدين (لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ، ولا إمرأة، ولا تغرقوا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لأكل)[1]، وحديث (عمر بن الخطاب) عن العمال: (وإنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا بشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى، فو الذى نفسى بيده لأقصينَّه)[2].

تقدمت الدولة الإسلامية إلى الشعوب المفتوحة بمزيتين أو نعمتين، لم تعرفها فى عهد الحكم السابق: الأولى نعمة التسامح والحرمة الدينية، والثانية نعمة الضرائب العادلة المعتدلة، التى تفرض طبقًا لأصول وحدود معينة، وقد كان لهذا التسامح وهذه القناعة أثر فى تذليل سبل الفتح أمام العرب، فذاع الإسلام بسرعة خارقة بين الشعوب المفتوحة، وأثرت هذه الشعوب التى منحت حرية الإعتقاد أن تنزل عن أديانها لتعتنق دين الحكومة الجديدة[3]، وكان السلام لمن سالم المسلمين فقد لجأ المسلمون إلى السلم إذا لجأ له أعداؤهم[4].

* قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١].

---

(١) ابن خلدون ج. القسم الثانى ص٦٥.

(٢) ابن الجوزى سيرة عمر بن الخطاب (مصر) ص٨٢.

(٣) محمد عبد الله عنان- مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام- الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٦.

(٤) د. أحمد شلبى- الإسلام والقتال- ص٢٦.

* قال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٠].

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

(القتال) فرض على المسلمين وهو كره لهم حتى يتحقق تعديل مواقف المشركين من مواقف العداء المشرك المعتدى إلى مواقف السلام، فهو حراك لا (نفى ولا هلاك)[1].

غزوات الرسول ﷺ وحروبه:

حين أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال بعد الهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى: حين خرج النبى ﷺ بثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا من أصحابه وخرج للقائهم ما بين تسعمائة وألف رجل، فجمع الله بين رسوله وبينهم على غير ميعاد فى (بدر) فنصره الله عليهم، وكان فى ذلك نصر للمسلمين وكسر شوكة أعدائهم.

غزوة بدر الكبرى:

المحاربون من كفار مكة، صمموا على حرب المسلمين حتى لا يفكروا فى اعتراض قوافلهم، وكان النبى [أمام جيشين، أحدهما فيه السلاح والخيل والعُدد، والآخر فى ثلث من يقاتلونه عددًا، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف، ومن كل مطية غير الأقدام][2].

---

(١) د. محمد عمارة- الحضارات العالمية تدافع أم صراع؟ - مطبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ديسمبر ١٩٩٨ ص٢٠.

(٢) عباس العقاد- عبقرية محمد- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ص٦٠.

[وهـو فى اللحظـة الأولى بعد الظفر، خليق أن يعلـم مدى انتصاره ومـدى ما يتوقعه بعده، ومـدى ما فعلته الفئة القليلـة بالفئة الكثيرة، ليقيـس عليه مـا تفعله مثلها فيمـا يليها من وقعات، وهؤلاء مراسـلو الصحف الحربيون الذين يدرسـون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن سـاحات القتال، بعد انجلاء الفريقين ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينهما][1].

واتضح من فوز المسـلمين فى هذه الغزوة أهمية (الشورى) التى كانت من أهم أسباب النصر، فقد استشار الرسول ﷺ أصحابه فى أمر الحرب، فاسـتقر رأيهم على التصدى لجيش قريش، وعندما وصل المسـلمون إلى (بدر) عسكروا على أول بئر من آبارها..

وفوز المسـلمين فى غـزوة (بدر الكـبرى) يحمل دروسـا كثيرة فى الحروب، تؤكد عبقرية الرسول ﷺ وتوفيق الله سبحانه له ولصحبه.

قـال تعـالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩].

[إن عبقريـة محمـد فى قيادتـه، لعبقرية ترضاهـا فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شـريعة الله والنـاس، وترضاها الحضارة فى أحدث صورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء أو الأعداء] [2].

---

(١) عبـاس العقـاد- عبقريـة محمد- نهضـة مصر للطباعة والنشـر والتوزيع ص٦١.

(٢) عباس العقاد- عبقرية محمد- مكتبة نهضة مصر ١٩٧٧م. ص٦٢.

غزوة أحد: [1]

في شوال من السنة الثالثة كانت غزوة أحد حين تجهز مشركو قريش بنحو ثلاثة الآف رجل ليأخذوا بالثأر من النبي ﷺ فلما علم النبي ﷺ بهم خرج إليهم، فقتلهم بنحو سبعمائة من أصحابه، وكان النصر لهم حتى ولّى المشركون الأدبار، إلّا أن الرماة الذين جعلهم الرسول ﷺ في ثنية الجبل، يحمون ظهور المسلمين ولا يبرحون مكانهم، تركوه حين ظنوا أن المعركة انتهت بظهور هزيمة المشركين، ولكن الفرسان من المشركين كروا على المسلمين حين رأوا الثنية خالية فانتكس الأمر وصار كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

في ربيع الأول من السنة الرابعة: كانت غزوة (بني النضير)، وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الذين كانوا في المدينة، وعاهدوا النبي ﷺ حين قدمها مهاجرًا، فنقضوا العهد، فخرج إليهم النبي ﷺ، فتحصّنوا بحصونهم ﴿ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) محمد بن صالح عثيمين- الضياء اللامع من خطب الجوامع- شركة الطباعة من مطبوعات الرئاسة العامة للإمارات العربية السعودية المتحدة- الرياض البحوث العلمية والافتاء- ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

وخرجوا منها أذلة، فنزل بعضهم فى (خيبر) وبعضهم فى الشام، وفى شوال من السنة الخامسة: كانت غزوة الأحزاب: الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ من مشركى قريش وغيرهم، بتحريض من اليهود من بنى النضير، الذين أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبى ﷺ، حين أجلاهم من المدينة، فعسكروا حول المدينة بنحو عشر آلاف مقاتل، فضرب النبى ﷺ الخندق على المدينة من الناحية الشمالية، فحماها الله تعالى من الأعداء فأرسل الله عليهم ريحًا شرقية عظيمة باردة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفى ذى القعدة من هذه السنة حاصر النبى ﷺ بنى قريظة، آخر قبائل اليهود فى المدينة، فقتل رجالهم لنقضهم العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ، فأورث الله نبيه والمؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم[1].

وفى ذى القعدة من السنة السادسة كانت (غزوة الحديبية) التى كانت فيها بيعة الرضوان، حين خرج النبى ﷺ بنحو ألف وثلاثمائة رجل من أصحابه، يريد العمرة، فصده المشركون عن ذلك، مع أن عادتهم ألّا يصد أحد عن البيت، فأرسل إليهم عثمان بن عفان ليفاوضهم، فأشيع أنه قتل، فبايع النبى ﷺ أصحابه لقتال قريش، وفى ذلك أنزل الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) محمد صالح بن عثيمين- الضياء من خطبة الجوامع ط٢- الرياض ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م ص١١٧.

وفى محرم من السنة السابعة كانت (غزوة خيبر)، وهى حصون اليهود ومزارعهم فى الحجاز، فغزاهم النبى ﷺ لنقضهم العهد، وتحريضهم كفار قريش، وغيرهم على قتال النبى ﷺ، فحاصرهم حتى فتح الله عليه فغنم النبى ﷺ أرضهم وقسمها بين المسلمين.

وفى رمضان من السنة الثامنة، كانت غزوة فتح مكة، حين نقضت قريش العهد الذى كان بينها وبين النبى ﷺ فى الحديبية، فخرج إليهم فى نحو عشرة الآف من أصحابه، ففتح الله عليهم وطهر أم القرى من الشرك وأهله، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا.

غير أن (هوازن وثقيف) علما أن النبى ﷺ قد فرغ من قتال قريش، فاجتمعوا له فى (حنين)، فخرج إليهم فى شوال من السنة الثامنة لقتالهم فى نحو اثنى عشر ألفا، وأعجب الناس بكثرتهم وقالوا لن نُغْلب اليوم من قلة، فأراهم الله تعالى أن النصر عنده لا بسبب الكثرة، وأنزل فى ذلك: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفى السنة الرابعة من شهر رجب كانت (غزوة تبوك)، حين بلغ النبى ﷺ أن الروم قد جمعوا له يريدون غزوهُ فخرج ﷺ فى زمن عُسرة، وفى أيام شدة الحرب، وطيب الثمار، ووقت الرطب، والمسافة البعيدة. فنزل فى (تبوك) نحو عشرين يومًا ولم يكن قتال، ثم رجع إلى المدينة، وأقام فيها

ركائبًا من حوله، من زعماء الكفار، يدعوهم إلى الإسلام، وصارت الوفود تأتى إليه من كل وجه، يعلنون إسلامهم، ويتعلمون منه دينهم.

وهكذا كانت حياة النبى ﷺ حياة وجهادا، وعملا، ودعوة إلى الله ودفاعا عن دينه.

لقد جهز المقاتلين، وتعاون الجميع معه، ونزلت آيات من سورة البقرة تصف حالهم، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وفى غزوة تبوك: هذه عاد الجيش الإسلامى أدراجه حين تأكَّد من انصراف الروم عن القتال، وكان النبى قد سمع أنهم عبئوا جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما علم بعدولهم، توقف الجيش الإسلامى عن (الغزوة).

لم يحارب المسلمون قط لمجرد الحرب، وإنما صبروا على المشركين، حتى أُمروا أن يقاتلوهم كافَّة كما كانوا يقاتلون المسلمين كافَّة.

[وكانوا يحاربون من لا يؤمن عهده، ولا يتقى شره بالحلف والمسالمة][1].

قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

لقد كانت (غزوة تبوك) اختبارًا عظيمًا، نجح فيه المؤمنون صادقو

(١) عباس العقاد عبقرية محمد - (نهضة مصر سنة ١٩٧٧م) ص٣٥

الإيمـان وفشـل فيه المنافقـون، وكانت المعركة مع الـروم. حيث أعلن (المنافقون) عن مخالفتهم، وأعلن (القرآن الكريم) سـخط الله على هؤلاء ومن سـار سـيرتهم فى عدم تأييد المسلمين فى هذه المعركة[1] قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٢].

لقد واجه الرسول ﷺ مواقف المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه كما واجه الكثير من العَناء فى سبيل الدعوة للإسلام.

❁❁❁

(١) د. أحمد شـلبى- توجيهات طبيـة يقدمها الرسـول- الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠١ ص٣٧.